

# تطور الفكر المصري المعاصر

## وأثر المفكرين اللبنانيين فيه

بقلم الناقد السوفياتي ف. بوليسوف

والامم ، ويجب ان نحتل مكاننا في هذا الصراع (٢) . .  
وبهذه الكلمات وضع عمر فاخوري برنامج مجلة « الطريق » ومعظم  
الكتابات المنشورة في المجلة من هذه المواد او تلك تتناول هذه المسألة :  
( كيف يجب ان نعيش ) .

وفي فترة ما بعد الحرب كانت المجلة تدعو الى تنشيط النضال  
الوطني التحرري ، والى القضاء على الميراث الاستعماري في الشرق  
العربي ، والى النضال من اجل السلام ، والى الانتفاض ضد جر البلاد  
العربية الى الاحلاف العسكرية ، وقد اصبحت « الطريق » عضوا  
في منظمة انصار السلام ، لا في سوريا ولبنان فحسب ، وتزايد  
اكثر فاكث من كانوا ينشرون انتاجهم فيها من الادباء المصريين ،  
والعراقيين ، والسودانيين ، ومن كانوا يرأسونها من العربية  
السعودية ، واليمن ، وشمال افريقيا .

وفي عام ١٩٥٠ ظهر نشاط المتعاونين مع المجلة باعتراف المجتمع  
الدولي ، فاحرزت مجلة « الطريق » الميدالية الذهبية التقديرية للسلام .  
وكانت غالبية المراسلين المتعاونين مع مجلة « الطريق » من  
الشبان المنحدرين من تجمعات الشعب ، ومعظم هؤلاء بدأوا نشاطهم  
ككتاب اجتماعيين سياسيين ، ولكن بعض هؤلاء في المدى الطويل جربوا  
قواهم في فن القصة القصيرة ، ونقلوا شعار « اكتب من اجل الشعب  
واكتب عن الشعب » من الكتابة الاجتماعية السياسية الى الادب الفني .  
وقد اصبح الموضوع الرئيسي لانتاجهم هو التفسير عن حياة  
الكادحين ، كالفلاحين ، والعمال ، والمثقفين التقدميين ، وبشجاعة قدم  
هؤلاء الشبان من الكتاب في مؤلفاتهم مشكلات حيوية ملحة ، وفسي  
مقدمتها مشكلة الاصلاح الجوهري لظروف حياة الجماهير الشعبية ،  
والقضاء على بعية البلدان العربية سياسيا واقتصاديا للسدول  
الاستعمارية ، وحاولوا ان يكتشفوا المبادئ الإيجابية الإبتداعية في  
البطل الجديد ، وهو الانسان الكادح . فالشخصيات الرئيسية للقصص  
والافاصيص في البداية مظلومة مضطهدة فاقدة الامل في مستقبل  
افضل ، ثم تتحول بالتدرج الى اناس اقوياء ، يناضلون بوعي ضد الظلم  
الاجتماعي ، ويؤمنون بالانتصار الطبيعي .

وهؤلاء الابطال معارضون بصراحة ضد بطل الادب البورجوازي  
الفاسد الضميف النفس ، المعيب ، غير الوائق في الحياة ، ولا في  
شخص بطل الادب البورجوازي .

لكن ابداع الكتاب الشبان ليس متحررا من المعايير الكبيرة ، فكثير

في نهاية الحرب العالمية الثانية اصبحت الحياة في البلاد  
العربية ديمقراطية ، وقد ساعدت طبيعة الحرب ضد الفاشستية على نمو  
الوعي السياسي لدى المثقفين التقدميين ، ولدى الفلاحين والعمال ،  
فاصبحوا يناضلون بنشاط وفاعلية في سبيل الاستقلال الوطني من  
اجل حقهم الحيوي والملح .

وفي سنوات ما بعد الحرب قدم النضال من اجل السلام في جميع  
انحاء العالم الى المسرح السياسي الكبير ممثلين من جماهير الشعب .  
وفي مجموعة من البلاد العربية زادت الطبقة العاملة من ناحية  
العدد والتنظيم ، ففي مصر - على سبيل المثال - بلغ عدد العمال مليوناً  
وقامت النقابات واحدة اثر الاخرى لتوجيه نضال الكادحين .  
وكان من الطبيعي ان يؤدي تنشيط الديمقراطية في الحياة  
الاجتماعية الى ظهور الادباء الجدد ، المنحدرين من الشعب ، والمدافعين  
عن مصالحه .

في سني الحرب كان كل نشاط الاغلبية الساحقة من هؤلاء الادباء  
الشبان موجها - قبل كل شيء الى هزيمة الفاشية ، والعمال الفاشيين  
في الشرق العربي .

وفي نهاية عام ١٩٤١ انشأت الرابطة السورية اللبنانية للنضال  
ضد الفاشستية في بيروت مجلة « الطريق » التي سرعان ما تجمعت حولها  
الكتاب المعادون للفاشية في جميع البلدان العربية .

وكان من قادة هذه المجلة الاوائل واحد من الشخصيات اللبنانية  
الاجتماعية المعروفة ، وهو الكاتب عمر فاخوري (١) ( ١٨٩٦ - ١٩٤٦ ) ،  
الذي اثر تأثيرا كبيرا على التربية الايديولوجية السياسية للكتاب  
الديمقراطيين الشبان ، فقد دعا الكتاب الشبان الى ان يدرسوا في  
أعمالهم السياسة الاجتماعية للشعب ، وان يصلوا بين افكارهم وبين  
حياته ، وان يسعوا بكل قواهم لتعليم جماهير الشعب .

وبجانب مؤلفه « الاتحاد السوفيتي حجر الزاوية » عام ١٩٤٤  
وغيره ، فقد نادى شعوب البلاد العربية الى الصداقة والتعاون مع  
جميع الشعوب ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي الذي رأى فيه  
مدافعا عن المضطهدين ، وقد كتب عمر فاخوري : « نحن لا نستطيع  
ان نعيش اكثر لاننا عشنا حتى هذه اللحظة ، ومن الضروري ان نفكر  
في كيف يجب ان نعيش ، ان الحرب الهائلة التي ستقهر العالم كله  
بالحديد والنار سيدور حولها الجدل في كيف يجب ان يعيش الناس

(١) عن ابداع عمر فاخوري انظر : رسالة د.أ. يوسوبوف ، ابداع

عمر فاخوري والاتجاه الرئيسي لمجلة « الطريق » موسكو ١٩٥٤ .

(٢) « الطريق » ، ١٩٤٢ ، عدد ٤ ، ص ٤ .

منهم حتى هذه اللحظة لا يملكون القدرة التامة على التكوين الفني ، والاختيار الدقيق للمادة ، وابداع الصورة ، ومؤلفاتهم كثيرا ما تكون شكلية ، لان سيكولوجية الابطال تنكشف عن شئيين من السطحية ، والصورة - كما هي العادة - تكتب بأسلوب تقليدي ، يقترب قليلا من تعبير الابطال الجدد ، ويستخدمون الاساليب في فوالب هجرت منذ زمن طويل ، ولهذا فان الطابع الفردي للشخصيات يظل غير واضح للقارئ .

والكتاب الشبان يوجهون الاهتمام الى فردية الصورة بافكار الابطال ولقنهم ، وفي النتيجة نجد الشخصية كثيرا جدا مسا تدوب في الجماهير ، بحيث تشبه الشخصيات بعضها بعضا ، وعدا هذا فالقصص قلما تكون ديناميكية ، وهي في بعض الاحيان بلا محور والوسائل التعبيرية فقيرة ، والشعور بالصيغة القوية لفن التعليم وافكار القصص لا يتم التعبير عنها غالبا بالصورة الرمزية ، ولكن في الاستطرادات السياسية والاجتماعية ، والكلمة في فصوص الابداء الشبان وافاصيصهم أكبر منها في اسلوب الكتابة السياسية الاجتماعية والثقافة العالية بالطبع تبدو بصورة غير كافية في الاعمال الادبية ولكن الامر ليس في هذا فحسب ، فقد اوضحت خصائص ابداع الكتاب الشبان في مثل جورج حنا ، الشخصية اللبنانية الاجتماعية المشهورة ، وهو الكاتب الاجتماعي السياسي الذي قال ذات يوم : « من المعروف ان الادب الوافعي يحمل في نفسه طابع هذا العصر ، منذ نشأته وبالنسبة للعالم العربي فان عصرنا هذا هو عصر النضال في سبيل التحرر من الاستعمار الذي يعمل بصورة سافرة او مستترة ، وفي هذه الظروف لا يستطيع الكاتب ان يتخلى تماما حتى ولو بقدر ما عسن لفة الصحافة في صورة خالصة قادرة على ان نهرب عن افكار الكاتب بدلا من ان تؤثر تأثيرا اكثر فاعلية على الإرادة الشريفة للناس سواء كانوا من الحكام المستبدين والرجعيين ام من الاستعماريين (٣) »

لكن العاطفية التقليدية في الادب العربي التي اخذت تختفي تقريبا في احسن مؤلفات محمود تيمور ونه حسين ، ولدت من جديد في ابداع الكتاب الشبان الديمقراطيون .

ويجب ان نشير الى ان صبغة العاطفية في انتاج السنوات الاخيرة اخذت تقل بالتدريج ، وخاصة عقب قيام الجمهورية في مصر بعد عام ١٩٥٢ ، حينما تفتحت امام الشعب العربي آفاق واقعية للنضال المؤثر ، من اجل التغلب النهائي على الطرق الاقتصادية للاستعمار .

وفي الاربينات كان موقف الاستعمار والرجعية الداخلية في البلاد العربية قويا ، وكان العملاء والفلاحون يعيشون في ظروف قاسية ، حيث اضطهدت حرية الفكر بجميع الوسائل .

ولهذا فان ابطال القصص والافاصيص في هذه السنوات كانوا يتألمون ولكنهم لا يتوقفون ، بل يبحثون عن الضرورة المحتومة لتحقيق العدالة بالنضال الشعبي ، لكنهم في الحقيقة لم يكونوا يناضلون ، بل كانوا في احسن الحالات يحكون على اي نطاق ينشأ النضال من اجل تحقيق العدالة .

وشخصيات هذه القصص مرسومة بطريقة مبسطة ، ذات طرف واحد ، هو الالم وحده ، اصف الى ذلك ان تصوير عذاب البطل يقدم غالبا في صور « قياسية ، فالبطل - مع عذاب الجوع - يقاسي كذلك آلام البرد وهو يهذي بصورة كثيفة نحت المطر المنهمر وهو يبحث عن عمل ، ويعلم بقطعة الخبز التي يمكن ان تشبعه ، وهذه المواقف كثيرا ما نلتقي بها بقدر كبير جدا في قصص القصاصيين الشبان في لبنان وسوريا ، وكذلك في مصر . ومع هذا فمن الواضح بالنسبة لبيروت ودمشق والقاهرة ان الامطار الفزيرة ليست من ملامحها .

(٣) « الشرق المعاصر » ، ١٩٥٧ ، عدد ٦ ، ص ١٠ .

والذي يمكن ان يقال عن الصبغة العاطفية في مؤلفات شباب الكتاب انه من الضروري ان نلاحظ لا تأثير التقاليد فحسب ، ولكن كذلك حالة الم « الرجل الصغير » ، فهذا الاسم واضح جدا ، وقريب من القصص الذي ينحدر من بين الناس البسطاء ، فكثير منهم - بجانب نشاطه الادبي - يظل مشغولا بعمله السابق ، ويظل عاملا او موظفا صغيرا وهكذا ، لان العمل الادبي في البلدان العربية ، وفي معظم الاحوال ، لا يمكن ان يضمن حياة مقبولة ، ولا شك ان محور كثير من القصص مأخوذ من الحياة بكامله ، لكن بعضا منها له طابع الترجمة الذاتية ، والمناقشات البلاغية للشخصيات يمكن ان نلتقي بها في كل قصة للكتاب الشبان تقريبا ، انها في احيان كثيرة تفعل القيمة الجمالية للانتاج ، وفي احيان تكون نهائية تماما بدون هذه الاضافة . ومن الواضح ما قيل بتعبير جورج حنا من ان الكاتب لا يريد « ان يرفض تماما استعمال لفة الصحافة ولو في اضييق الحدود » ومن هذا يظهر ذلك الكبر تأثير فعال على الإرادة الشريفة للناس » ، ويحد انتباه القارئ الى الفكرة الموجودة في القصة ، لكي يجبره على ان يفكر . لكنه بالرغم من عدم نضج انتاج الكتاب الشبان الديمقراطيون ، فان انتاجهم يمس بصورة جديدة المشكلات الهامة ، وجميع المبادئ الكبرى .

وفي عام ١٩٥٠ ظهر من كتب الكتاب الديمقراطيون اكثر مما ظهر من كتب الكتاب البورجوازيين ، واجبرت شعبية الابداء الديمقراطيون دور النشر والمجلات البورجوازية على ان تنشر احيانا انتاج الكتاب الشبان ، وهي مستندة الى رأي التجاربيين البحت ، وهذه الآراء كان من الواضح انها يريد ان نقود الفكرة الثورية ، والكتاب البورجوازيون كثيرا ما يلقون ابطالهم في تيار الكفاح الثوري . وهذا - على سبيل المثال - كما في رواية سهيل ادريس « الحي اللاتيني » فالشخصية الرئيسية المشبعة بالفامرات المحبوبة الكثيرة العدد ، لا تجاوز التأثير هذا او ذلك .

وبطل قصة جورج طرايبيشي « الظلام المتعمن » يضرب فتاة لسلوها الرقيق فقط لانها لم توافق على ان تبادل الحب ، وبعد فترة من الزمن يعرف ان الفتاة قد ختمت حياتها بنفسها ، وحينئذ يبدأ يعذبه الندم ، ولأربع سنوات لم يعرف البطل طعم النوم ، ولا الهدوء ، واخذ يبحث عن الموت ، واخيرا سافر الى الجزائر ، حيث شارك في حركة الشوار . .

ويبدو تأثير مجموعة مجلة « الطريق » على تحول الحركة الديمقراطية في مصر ، حيث يقوى النضال الفكري عام ١٩٤٢ ، فالكتاب الاجتماعيون السياسيون الشبان اخذوا يصدرن مجموعة من المجلات الجديدة التي يدعون فيها الى الافكار الديمقراطية ، وكذلك يعرفون القارئ بعلم الجمال اليساري ، لكن في عام ١٩٤٦ وصلت الاحزاب الرجعية الى الحكم ، وقوى النضال ضد الافكار « التخريبية » ، واغلقت هذه المجلات ، واعتقل بعض المتعاونين معها ، ونفوا ، ولكن النضال الفكري لم يتوقف ، فعلى صفحات مجلة « الطريق » ومجلة « الثقافة الوطنية » اللبنايتين وغيرها - فصح الكتاب المصريون مناورات الزمرة الحاكمة في مصر ، تلك المناورات التي حاولت بمساعدة المستعمرين الانكليزي ان تقمع الحركة الوطنية التحررية في البلاد ، وقد دافع الكتاب الشبان عن حق « الادب المشايخ » للديمقراطية في البقاء في مرحلة النضال الطبقي العنيف ، وهم يبرهنون على ان « الامبالاة السياسية » في الادب البورجوازي انما هي مظهر خداع ومزيف ، لان نشر التعليم والموظفة حق للكتاب ولكنه لم يدخل في السياسة ، والنقود الذي يتعكس في صورة وبيلة على الابداع الفني ، والادب البورجوازي في الواقع يخدم الرجعية ويجذب اهتمام الجماهير عن النضال بهذه الوسائل في تشاؤمها ، وعدم ايمانها بامكانية الوصول الى حياة

افضل .

التجربة ، وان يجمعوا الأدب العربي الجديد ، وعلى صفحات المحلات والجرائد كثيرا ما ظهرت مقالات نقدية مخصصة لابداع بعض المؤلفين او بعض المؤلفات .

اضف الى ذلك اهمية المشكلات الخاصة باعادة فهم التراث الثقافي للعرب الذين يعترفون بالأدب التقدمي في جميع البلدان العربية ، انهم يقومون ببحوث كاملة ودقيقة بعضهم مع بعض .

والمحاولة الهامة في اصدار تاريخ المسرحية العربية المعاصرة تتمثل في كتاب عالم الادب اللبناني محمد يوسف نجم : « المسرحية في الادب العربي المعاصر » ، الذي ظهر في عام ١٩٥٦ . وقد قام يوسف نجم بعمل ضخم في جمع هذه المادة الغزيرة ومعالجتها ودراستها لم يقدم به احد من قبله ، وهذه اول دراسة جديدة تعرف القارئ بتطور المسرحية العربية منذ اواسط القرن الماضي حتى بداية الحرب العالمية الأولى .

والمرح في صورته المعاصرة وجد في البلاد العربية في اواسط القرن التاسع عشر ، وقبل هذا ايضا وجد في العصور الوسطى مسرح العرائس ، ومسرح خيال الظل المنتسب من الصين ، ويربط يوسف نجم ظهور المسرح العربي المعاصر باسم مارون النقاش ( ١٨١٧ - ١٨٥٥ ) مؤلف اول مسرحية عربية ، ومحل عشرات المسرحيات ، والذي أعاد اعداد النشرات الاصلية ، واشاع هذه المادة الضخمة .

وقد محا يوسف نجم واحدة من البقع البيضاء في تاريخ الادب العربي والمسرح العربي ، ففي عام ١٩٥٧ استقبل كتاب يوسف نجم بالحفاوة من جامعة الدول العربية .

ومحمد يوسف نجم هو كذلك مؤلف كتاب « فن القصة » ١٩٥٥ ، وفي الكتاب يبحث مسائل التأليف وتطور الاحداث ، والحوار ، وابداع الصورة .

وهذا النوع من الكتب يعتبر نوعا فريدا في علم الادب العربي ، ولهذا كان كتاب يوسف نجم ذا قيمة كبيرة في هذا المجال ، والهدف الرئيسي للفنان - في رأي المؤلف - هو عرض الحياة ، وكيف وجدت ، وليس الهدف ان يزخرفها ، ولا ان يخطف من الحياة جوانبها السلبية وحدها ، وبالإضافة الى ذلك فان واجب الفنان ان يكشف امام القارئ الحياة الداخلية للإبطال ، وان يعرض نشوء افكارهم ، ومن اجل بلوغ هذا الهدف يجب على الكاتب ان يستخدم جميع الوسائل التي في لوجه الوانه الفنية ، كالفن ، وتطور الاحداث ، والتكوين ، وهكذا .

وبمثابة النموذج الناجح لحل هذه المشكلات يحلل يوسف نجم بالتفصيل رواية تورجينيف « الآباء والابناء » ، ورواية فلوريير « مدام بوفاري » ، وبعض روايات الكاتب المصري نجيب محفوظ . ويوسف نجم يعتبر ان المضمون والفكرة هما المقياس لقيمة الانتاج الفني . وهو يخصص اماكن كثيرة من كتابه لمسألة الشكل ، وينتقد انتاج الكتاب العرب الشبان الذين لا يكادون يعيرون الشكل واللغة والإيقاع الموسيقي للجملته ادنى اهتمام في انتاجهم .

ويوسف نجم يتوقف بالتفصيل عند مسانسل الفردية والنموذج للشخصية ، فالإنسان الحي المتفرد ، ذو الطابع الخاص ، واللامسح المميزة - يجب ان يقدم نفسه بنفسه للقراء .

والمؤلف ينتقد الكتاب الشبان من اجل انهم استخدموا شخصيات ابطالهم .

وهذه المسائل قد لا تكون مطروحة في علم الادب العربي للمرة الأولى ، ولكن كتاب يوسف نجم يبرزها بمزيد من الاهتمام .

ترجمه عن الروسية

رضوان ابراهيم

في سنوات ما بعد الحرب رفعت الرجعية شعار « الفن للفن والادب للادب » وحتى هؤلاء الكتاب الكبار والنصراء السابقون للطريقة الواقعية مثل طه حسين وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور اصبححت مبدعاتهم تبدو في صورة شكلية ذات نزعات فنية هابطة .

والنضال بين الكتاب الديمقراطيين الذين نهضوا للدفاع عن مصالح الشعب ، وبين الكتاب البورجوازيين المضمون في عالم مزدحم بالاضطرابات النفسية - الهب المشاعر سنة بعد اخرى ، وجعله يقبل افي بعض الاحيان طابع العنف .

وكان جوهر النضال، وهدف محاولة الكتاب الديمقراطيين مما عبر عنه تعبيراً جيداً الناقد اللبناني المعروف حسين مروة ، الذي كتب يقول :

« اننا نادي الادباء لكي يدعوا الى سعادة الحياة ، وان يكتشفوا الجمال في الحياة ، ومنايع السعادة والامل .. ولهكذا فنحن نادي بالنضال ضد هذا الادب الاسود الذي يبذر اليأس والتشاؤم في النفوس ، ويريد ان يفلق امام الناس نافذة الامل في غد افضل من اليوم، وترى فلسفته المستقبل حائظ اصم .. ونحن نعرف كيف يشمكون هذا الادب الذي لا يشير الى اية بادرة للمساواة بين النحل وبين الانسان العامل ، والادب الناشء عن الانسان المبدع الذي يعرف ما يفعل، وامام هذه الظروف فقط فان الانسان في الحقيقته قادر على ان يقهر الطبيعة في سبيل سعادته وحياته البهيجية (٤) »

وتربية الانسان الجديد ، انسان الكفاح الحر ، والافق العقلي الواسع ، الانسان الوطني لا تصورها الكتاب الديمقراطيون بدون دعوة واسعة للشعب ، وكانها من المشكلات الملحة في الحياة الاجتماعية مثل التراث الادبي الكلاسيكي للعرب ، فكثيرا ما زيف علم الادب العربي الكلاسيكي عن ملامح العلاقات النقدية بالحياة في ذلك الحين، وعناصر النضال ضد الشر والظلم ، اذ وجدوا لدى الحريري ، وابي العلاء ، والجاحظ وغيرهم من الكلاسيكيين دعوة الى النضال ضد اعداء الشعب ، ولم يهتم اي منهم بالصورة الرائعة في انتاج هؤلاء المؤلفين، ولا في التحليل الذي كان يحدد الادب القديم فحسب ، ولكنهم وجدوا في هذا الانتاج المضمون الثري الخصب كذلك .

ويحاول علماء الادب التقدميون ان يوجدوا تنابعا بين التراث الثقافي ومنجزات الثقافة المعاصرة ، وان يدركوا بطريقة جديدة سير تطور الفكرة الجمالية ، ومن الواجب ان يكرس دور جماهير الشعب في انشاء قيم فنية ، وفي هذا الصدد يجب ان نشير الى ان الفساد الديمقراطيون يشغلون انفسهم بصورة جدية ولاول مرة بتحليل « الف ليلة وليلة » ، و« كليله ودمنة » ، ورواية عنتره ، ومؤلفات اخرى من الابداع الشعبي الذي استخف به علم الادب القديم ، فانسوا اليه طائفة من الادب الذي يعد في الرتبة الثالثة .

وفي عام ١٩٥٤ اصدر عالم الادب والكاتب المصري احمد رشدي صالح كتاب « الادب الشعبي » ، وقد عالج هذا العمل على امتداد احد عشر عاما ، وفيه بحث عددا ضخما من المؤلفات الفلكلورية ، ودرس مع هذا الظروف الاجتماعية والثقافية التي الفت فيها (٥) .

وبجانب دراسة التراث الكلاسيكي حاول علماء الادب ان يتفهموا

(٤) « الثقافة الوطنية » ، ١٩٥٥ ، عدد ٦ ، ص ٢١ .

(٥) احمد رشدي صالح كان مدير المركز الفنون الشعبية السذي انشء عام ١٩٥٧ بمبادرة حكومة جمهورية مصر .